الاسم و اللقب: ليلى تحري

الرتبة العلمية:أستاذة محاضرة أ

الجامعة:الشاذلي بن جديد ـ الطارف ـ

البريد الالكتروني: tahrileila82@gmail.com

عنوان المداخلة: :التجربة الشعرية عند الأمير عبد القادر

شعر المنفى أنموذجا

مقدمة:أكدت الدراسات التي تناولت حياة الأمير عبد القادر ذلك المسار المرتبط لا بالسلاح والنضال فحسب بل المرتبط أيضا بالحس الأدبي انطلاقا من المكانة الأدبية التي تحتلها نصوصه المحملة بحمولات ثقافية وتناصات تاريخية عكست هموم الذات والوطن ومشاغل المنفى، فقد مثل الشاعر من خلال المحطات الأساسة من سيرته والتنقلات الكبرى في تطورات تفكيره نموذجا عن المثقف صاحب النظرة العميقة إلى المنفى كتجربة قاسية لكنها اقترنت اقترانا صميميا بفكرة القومية كما طرحت بدائل معرفية لتجاوز محنة الاغتراب وذلك عبر الكتابة والإبداع، فبدل أن يتحول المنفى إلى حزن وألم ،خلق الشاعر لنفسه فضاءات من الرؤية المتوازنة للذات والآخر، من هذا المنظور سنحاول في هذه الورقة النقدية أن نطرح فكرة المنفى في شعر الأمير عبد القادر من منظور ما بعد حداثي قائم على فكرة المنفى امتياز كما أسس له ادوارد سعيد ونقاد ما بعد الكولونيالية .

ما بعد الحداثة وتقويض سلطة الأنساق: تعد ما بعد الحداثة توجها نقديا للتنوير والحداثة طرحت العديد من القضايا والإشكاليات على المستوى النظري والفلسفي بدأت جذورها مع الفيلسوف نيتشه في القرن 19عندما شرع في نقد أسس الحداثة الغربية وعلى رأسها نقد العقل فهو يعد إلى جانب ماركس وفرويد من المفكرين الذين دشنوا نقدا جذريا للحداثة وان كان نيتشه هو الأكثر جذرية حيث طاول كل الأسس التي قام عليها التراث الفلسفي للإنسانية"

سعت ما بعد الحداثة إلى تقويض سلطة الأنساق الفكرية المغلقة والتي عادة ما تأخذ شكل المذاهب والإيديولوجيات على أساس أنها في زعمها تقديم تفسير كلي للظواهر الإنسانية ..فلم تكتف ما بعد الحداثة بمجرد إعلان سقوط هذه الأنساق الفكرية الكبرى وإنما ألغت الذات الحديثة"2

ويعد نص ليوتار الوضع ما بعد الحداثي أول نص فلسفي طرح الأفكار الأساسة لما بعد الحداثة والتي يمكن إجمالها في الاعتراض على مختلف قيم الحداثة كالتقدم الحرية العقل ..إ ن عصر ما بعد الحداثة لا يقوم على الحكايات الكبرى وإنما على الحكايات الصغرى "تظل الحكاية الصغرى هي الشكل الجوهري للابتكار الإبداعي "3

ويخلص **ليوتار** إلى ان فكرة التاريخ العالمي هو مجرد سرد من تلك السرديات الكبرى أو الميتا سرديات التي أوجدها التنوير والحداثة لذلك فانه لا يتردد في القول إذا كان التاريخ الكلي واحدا من تلك السرديات الكبرى أو الشارحة للحداثة فلا بد من رفضه" 4

ويقدم **عبد الوهاب المسيري** ما بعد الحداثة باعتبارها مرحلة يرضخ فيها الإنسان الغربي لإدراكه إخفاق مشروع التحديث هي النظر للعالم بلا مركز غير متمركز حول أي مطلق عالم السيولة ومع اختفاء المركز لم يعد من الممكن للفرد أن يتجاوز حدود المادية الضيقة وأصبح يبحث عن معنى لحياته من خلال الاستهلاك والتوجه الحاد نحو اللذة في المجال الاقتصادي" 5

إنه عصر النهايات والما بعديات نهاية الإيديولوجيا، نهاية التاريخ، نهاية الميتافيزيقا نهاية الحقيقة نهاية البحث عن المعنى، لذا لا توجد أزمة معنى وتحل اللا عقلانية المادية محل العقلانية المادية والاستنارة المظلمة محل الاستنارة المضيئة وتختفي تماما القيم والثوابت والمطلقات ويصبح لكل فرد ثوابته وقيمه ودينه ..إنها رؤية للكون تؤكد أن الكون لا مركز له وان لا علاقة بين النتائج والأسباب ولا بين الدال والمدلول ولا بين العقل والواقع ..انه عالم ذرى تماما لا قداسة فيه انسحب منه الإله ومات فيه الإنسان 6"

ما بعد الحداثة هي حالة متجذرة في هذه الحضارة وهي تعبير عن نزوع بشري عميق وعن نمط يسم كل المنظومات الحلولية المادية فالذات تكتسب قيمتها ليس من الذات وإنما من السلعة أصبح الإنسان ذاتا مشتتة وأصبح كيانه مرتبطا بالأنماط الاستهلاكية والعلاقات الجنسية انه الإنسان ذو البعد الواحد المجرد من السمات الأخلاقية والإنسانية "الاستهلاك والاستعمار هما عماد الدين الجديد لذا فإن الشعار السائد أنا استعمر إذن أنا موجود أو أنا أستهلك إذن أنا موجود"7

ما بعد الاستعمار ..... : تعد ما بعد الاستعمار من أهم النظريات النقدية ذات الطابع الثقافي التي رافقت ما بعد الحداثة عملت على فضح وتعرية المقولات التي تأسست عليها الإيديولوجيات الغربية ونسف الأسس الميتافيزيقية التي رافقتها وبالتالي فهي تهدف إلى تحليل كل ما أنتجته الثقافة الغربية عن طريق تفكيك المنظومة الكولونيالية وجرائمها الاقتصادية والثقافية والإنسانية ذلك أن الإيديولوجيا المركزية الاستعمارية أنتجت أنساقا إقصائية وأنظمة عنصرية ،وفي سياق تفكيك التمركز الغربي تعمل النظرية ما بعد الكولونيالية على كشف بنيات القوة المضمرة في الخطاب الغربي من جهة أولى حيث ظل الاخر موضوعا لحقول المعرفة الغربية ضمن ديالكتيك العبد/ السيد ومن جهة ثانية يتم اخضاع هذه الحقول المعرفية للمراجعة والتفكيك من طرف هذا الاخر الذي كان ذات يوم مجرد موضوع في الإبستمولوجيا الغربية"8

إن الحديث عن دراسات ما بعد الاستعمار هو حديث يدفع لاستحضار **ادوارد سعيد** الذي قدم الكثير للنظرية في كتابه "الاستشراق" و "الثقافة والامبريالية" حيث تنبع تحليلات سعيد من معطيات مثل القوة والسلطة ،سلطة الإنشاء والنصوص والتمثيلات وترابط المعرفة بالقوة

وبين سعيد في مجمل تحليله بأن السرد كان خادما للامبريالية ويستدل برواية "دانيال كروزو" إلى جانب ذلك أشار إلى رواية كوندراد التي تجسد عنهجية الامبريالية التي تسخر من الأصلانيين " نحن الغربيين سنقرر من هو المواطن الأصلاني الجيد ومن هو السيئ لأن الأصلانيين جميعهم لا يملكون وجودا كافيا إلا بفضل اعترافنا بهم فنحن خلقناهم ونحن علمناهم أن ينطقوا ويفكروا وحين يتمردون فإنهم ببساطة يؤكدون سلامة رأينا بأنهم أطفال أغبياء استغفلهم أسيادهم الغربيين"9

يطرح سعيد إلى جانب الامبريالية ما يسمى بثقافة المقاومة أو ما يسميه **إيمانويل فالرشتاين** بالحركات المضادة للنظم فرغم تقدم الامبريالية في القرن 19 و20 إلا أن هناك معطيات ثقافية تكشف عن تقدم المقاومة لها "فإذا كان السرد قد رسخ الامبريالية فإن السرد أيضا يغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجود تاريخها الخاص"10

هكذا تكون دراسات ما بعد الاستعمار مصوغة لفكفكة الاستعمار وإبطال الإنشاء الثقافي الذي شرعن من طرف الغرب حول الشرق وإفريقيا والعالم الثالث " فإمبريالية الغرب وقومية العالم الثالث تتغذيان إحداهما من الأخرى" 11

تعمل الدراسات ما بعد الكولونيالية على إبطال ومصادرة السرديات التاريخية والثقافية التي أنتجتها الثقافة البيضاء وأنتجها الغرب ،واذا كان سعيد هو الأب الروحي لما بعد الاستعمار فاننا لا ننسى ما قدمه **فانون** في المعذبون في الارض حكاية ترميزية أليغورية قومية تسام رؤيوي للتاريخ حيث يبدأ الكتاب برسم تخطيطي ارضي للفضاء الاستعماري فإذا به فضاء مقسوم إلى المدينة الأروبية النظيفة الحسنة الإضاءة والقصبة المظلمة النتنة السيئة الإضاءة من هذا المأزق الثنوي ينبع عمل فانون مدفوعا إلى الحركة بعنف الأصلاني وهو قوة يقصد لها أن تجسر الفجوة بين الأبيض وغير الأبيض ..والعنف بالنسبة لفانون هو التركيبة التي تتغلب على تشيئ الرجل الأبيض كذات فاعلة وتشييئ الرجل الأسود كمفعول"12

إذا كان هذا قدر الأصلاني ان يكون ذاتا مفعولا بها إلا انه في عالم فانون لا يمكن أن يحدث التغيير الا حين يقرر الأصلاني مثله مثل العامل المغرب المستلب عند لوكاتش، ان على الاستعمار أن ينتهي

،وبكلمات أخرى أن تحدث ثورة معرفية عندها فقط يمكن أن توجد الحركة وعند هذه النقطة يدخل العنف وهو قوة مطهرة تنصب المستعمر مباشرة ضد المستعمر"13

كل هذه المنطلقات التصورية تضعنا أمام أهم القضايا التي تطرحها دراسات الما بعد مثل الشرق والغرب ،الأنا والآخر، المركز والهامش، المنفى، التهجين الثقافة ....لذا سيكون المنفى مدار الاشتغال في هذه الجزئية .

تجاذبات المنفى وقلق الهوية في شعر الأمير عبد القادر

بما أننا بدأنا الحديث عن سياق ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار فإنه يجدر بنا في ضوء هذه المعطيات الفكرية أن نقف عند المنفى عند **إدوارد سعيد** المفكر المنفي الذي شكل المنفى جزء مهما في نتاجه النقدي خاصة في كتابيه:خارج المكان و تأملات في المنفى يستهل سعيد حديثه عن المنفى بقوله." المنفى أمر دنيوي على نحو لا براء منه،وتاريخي بصورة لا تطاق ،وأنه من فعل البشر بحق سواهم من البشر وأنه شأن الموت قد اقتلع ملايين البشر من منهل التراث والأسرة والجغرافيا" 14

إن تجربة النفي هي تجربة مريرة، فكان المنفي عند سعيد هو المثقف الملتزم بمفهوم **سارتر** والمثقف العضوي بمفهوم **غرامشي**، المنفى يساوي عدم التأقلم مع المكان ومع المجتمع في مجتمعات أجنبية هو أن يعيش الفرد حالة النبذ والطرد الأبدي من المكان الأصل/الوطن ،وبذلك يرتبط المنفى بالانزياح والانشقاق والهامشية .

ويصف **هومي ك بابا** أدب المنفى بأنه أدب اللااستئناس فالمنفي هو من لا مأوى له في عالم الكولونيالية وما بعدها كما أن ديار المنفى ديار لا مستأنسة تشير إلى مستوى دفين من مستويات الإقصاء والانزياح التاريخي الأمر الذي يجعل من ثيمة العودة هاجسا ملحا على ذاكرة المنفي"15

ويميز حليم بركات بين النفي القسري والنفي الطوعي ففي الحالة الأولى يطرد المنفي من بلده بقرار سياسي من قبل السلطة أما في حالة النفي الطوعي ينعزل الكاتب داخل بلده نفي داخلي أو قد يهاجر هربا من الاضطهاد إلى بلد آخر يؤمن له الحرية والعمل والظروف التي يفتقدها في بلاده"16

تطرح هذه الكتابات لكبار النقاد من أمثال **سعيد وهومي ك بابا** وغيرهم من الذين عاشوا خارج المكان تطرح فكرة التعايش والحوار الثقافي كما تطرح إشكالية قلق الهوية في حد ذاتها فهل تستطيع الذات أن تقيم الحوار وتنسلخ على الأصول في فضاء الآخر؟ لقد صاغ هذا القلق الوجودي ذوات المنفيين واستطاعوا التأقلم مع أوضاعهم وتجاوز النفي المكاني وتجاوز حدود القوميات ومناوءة الهويات المتصلبة التي تقيم الحواجز بينها وبين الآخر.

استطاع سعيد أن يقوض مفهوم المنفى بمعناه السلبي ليفتحه على المعاني الايجابية التي تحيل إلى الكتابة عن الأوطان و،كما فرضت الحروب والنزاعات والمركز على الإنسان أن يعيش منفيا فقد فرضت على الأمير عبد القادر أن يكون كذلك وما قصيدة "**عذاب الأسر**" إلا دليلا على تجرع تلك العذابات التي تعتري المنفي جراء بعده عن الوطن والأهل والأحباب ، يصف فيها الأمير الشوق الذي يعتريه يقول فيها 17

ماذا على ساداتنا أهل الوفا لو أرسلوا طيف الزيارة في خفا

يترصد الرقباء حتى يغفلوا ويكون مانع وصلنا ليلا غفا

فاذا تمكنت الزيارة خفية يأتي مواعد وصلنا متلطفا

ويكون بيت نزوله قلبي الذي وحياتهم من حب غيرهم عفا

ضيف له نزل لدي كرامته كبد شواها البعد في جمر جفا

يا سعد ان كنت البشير بوصله فلقد أتيت على المسرة و الوفا

لو أن نفسي لي إليك بذلتها وأراه بذل مقصر ما أنصفا

لم يبق يوم البين والهجر الذي خلقا لتعذيب الأحبة مسعفا

إلا صبابته وجسما قد غدا ملقى كشن بالفلا لن يخصفا

زفرات قلبي جمر نار أججت منه دموع العين فاضت ذرفا

يحكي زفيري رعده ورياحه وبوبله حاكى دموعي الوكفا

وإذا جرى ذكر العقيق وأهله أجرى العقيق تأسفا وتلهفا

يا أهل طيبة ما لكم لم ترحموا صبا غدا لنوالكم متكففا

لا تجمعوا بين الصدود وبعدكم حسبي الصدود عقوبة فلقد كفى

لم أدر شيئا قبل معرفة الهوى حبي لكم ما كان قط تكلفا

ما بالهم يا صاح لم يتذكروا صبا كئيبا في المحبة مدنفا

ما قيل ذاك أسيرنا وقتيلنا بين العوادي والأعادي مثقفا

قلبي الأسير لديكم والجسم في أسر العداة معذبا ومكتفا

حاشاكم لجميل ظني فيكم أن تشمتوا في العدو المرجفا

قلب الشجي كما علمتم انه لا ينثني عن حبكم متخوفا

يبغي الوصال ولو ت مزق تالفا ويلذ أن يلقى العذاب ويتلفا

يسري ولو أن الظلام عداته ويسير لو كان النهار المرهفا

وإذا كانت هذه القصيدة قد عبرت عن مرارة الأسر الذي عاشه الأمير عبد القادر ،كذلك لا نغفل القصيدة التي كتبها لزوجته بعد نقله من معتقل بو إلى أمبواز 18

أقول لمحبوب تخلف من بعدي عليلا بأوجاع الفراق وبالبعد

أما أنت حقا لو رأيت صبابتي لهان عليك الأمر من شدة الوجد

وقلت أرى المسكين عذبه النوى وأنحله حقا إلى منتهى الحد

حنيني، أنيني، زفرتي، ومضرتي دموعي، خضوعي، قد أبان الذي عندي

إن الظاهر يشير إلى تلك العلاقة التي تجمع العنف والمنفى فكلاهما يوحيان بالمأساة فإذا كان المنفى رحيل في الجغرافيا والزمن وذاكرة الذات والمحيط وعيش على إيقاع الخوف والفقدان ..فالعنف مغادرة للجلبة الإنسانية وسفر في التاريخ الوحشي ومن ثمة فان الوقوع تحت طائلته هو نفي بالضرورة نفي للحياة قبل أن يكون نفي للوجود"19

يصور الشاعر في هذه القصيدة شوقه الكبير وهو في ديار المنفى في ذلك المحيط الأجوف البارد الذي يوحي بكل معاني الفقد والمرارة، في ذلك الجو المشحون تتعالى تعابير الفقد والحرمان والشوق:كبد شواها البعد في جمر جفا، زفرات قلبي جمر نار أججت،دموع العين يوم البين

هي تعابير تأسست على تلك العذابات التي تحياها الذوات المنفية انه تشخيص لسيناريو الانكسار والهشاشة ويبعث على الإحساس بالعجز والضياع في فضاء المنفى الذي يسلب حرية الذات ، ويتعمق مسار الانكسار في تلك الأبيات الموجهة إلى الزوجة أم البنين كتجسيد لاستعارة الثقل التي لازمت الذات فكانت عبارات قلبي الأسير،الجسم في أسر العداة،أنيني ،زفرتي ...جاءت لتعمق واقع الاستلاب داخل المؤسسة الغربية داخل المنفى كنسق مغلق على الذات.

إن الذات وهي تحاول عبر البوح التعبير عن الحنين والألم وتشخص عبر تلك التعابير سردية متشظية هي فإنها في الوقت نفسه تكشف عن بنية الخراب الروحي التي آلت إليه، ذلك الخراب الذي يتجلى في الخواء النفسي نتيجة صدمة الواقع .

تجلي الصورة الشعرية الوجود خارج المكان الذي يبعث على نبذ المكان/ المنفى وإغراق الشاعر في صمت الداخل، فالواقع الذي تحياه شخصية الأمير داخل الفضاء الذي فقد كل معاني الألفة والانتماء ليتلون بكل الصور المرعبة لانسحاق الذات،فقد كثف المنفى من إيقاع الشعور بالغربة والتوتر وما فتئ يكرس أبعاد الانزياح والخروج والمساحات الرمادية التي أثثت تجربة الشاعر إنها الهوية المقيدة المأسورة في ديار الآخر،التجربة الوجودية المعقدة ،إن جوهر الإحساس بالمنفى يتعاظم في ضوء الحصار الوجودي المفروض على الذات ، لتبقى العبارات المستوحية للأماكن والمدن: العقيق،طيبة.. صورة لزمن جميل وأماكن جميلة راسخه في مخيلة الشاعر تمثل أحلى لحظات الحنين فعبر التداعي تكون الهوية .

تتراصف المقاطع الداله على الوجع لكنها لم تكن لتزعزع من عزيمة الشاعر الذي عهدناه ثائرا إذ وهو في منفاه ظل يعزف أنشودة الرفض ليفسح المجال أمام الذات لتصوغ خطابها ، فالمنفى لم يكن ذلك المكان المنعزل، إنما هو المكان الذي يطلق فيه الشاعر صرخاته عبر نصوصه الشعرية التي تنفتح على المقاومة والتحرر. وتشخيص عنف الهامش عندما يسترد صوته ويقول كلمته ،إنه مأوى الأحلام والآمال التي يتطلع لها المثقفون وبذلك يكمن امتياز المنفى، امتياز من حيث تصوير الأوطان والكتابة عنها، إنه رغم ذلك مراجعة الذات لمسار الابتعاد عن الوطن فسرديات المنفى جعلت من الكتابة ملاذا لأولئك المنفيين والمهجرين عن الأوطان.لقد تحول المنفى بالمنظور الجديد ازدواج العوالم الذي يفرضه قانون الاختلاف الثقافي

الإحالات والهوامش:

1- أحمد عبد الحليم عطية:نيتشه وجذور ما بعد الحداثة: دار الفارابي،بيروت، لبنان،ط1 ، 2010،ص123

2- المرجع نفسه:ص134

3- الزواوي بغورة: ما بعد الحداثة والتنوير:موقف الأنطولوجيا التاريخية دراسة نقدية،ص20

4- المرجع نفسه:ص22

5-عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية،مكتبة الشروق الدولية ط1، القاهرة ص102

6- المرجع نفسه:ص117

7-المرجع نفسه:ص14

8-محمد بوعزة:سرديات ثقافية،من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف،منشورات الاختلاف الجزائر،ط1،2014،ص14

9-إدوارد سعيد:الثقافة والإمبريالية،ترجمة:كمال أبو ديب،دار الاداب،بيروت،لبنان،ط4 ،2014ص63

10-المرجع نفسه،ص17

11 المرجع نفسه،ص68

12-المرجع نفسه،325

13-المرجع نفسه،326

14-إدوارد سعيد:تأملات حول المنفى1، ترجمة ثائر ديب،دار الاداب،بيروت،لبنان،ط2،2007 ،ص139

15-محمد الشحات: سرديات المنفى،ط1 ،2006،ص25

16-المرجع نفسه،ص22

17- ممدوح حقي:ديوان الأمير عبد القادر،دار اليقظة العربية

18-المصدر نفسه

19-شرف الدين ماجدولين:الفتنة والآخر،أنساق الغيرية في السرد العربي،الدار العربية للعلوم ناشرون،ط1 ،2012،ص113